المنهج التاريخي في اللغة

د.إسراء عريبي فدعم

كلية البنات- الجامعة الإسلامية

المقدمة

يعد المنهج التاريخي من المناهج المهمة التي لا يمكن إغفالها، ولحداثة الموضوع في تاريخ اللغة العربية نجد أن البحث في المنهج التاريخي ضرورة لا تغفل من أجل الوصول إلى قاعدة ينطلق منها الباحث لدراسة اللغة على منهج جديد واضح المعالم للوصول إلى حقائق لغوية لم يقف عليها اللغويون سابقا، لذا وجدت من الضروري البحث في موضوع المنهج التاريخي لمعرفة أهميته وعلاقته بالمناهج اللغوية الأخرى، ومعرفة أهمية دراسة اللغة العربية على ضوئه، مع ذكر أمثلة تطبيقية للمنهج التاريخي على اللغة العربية.

وقد تطلب طبيعة الموضوع أن يكون على مبحثين الأول: نظرة موجزة في المنهج اللغوي، وقد تضمن: غاية المنهج التاريخي، أهمية المنهج التاريخي،نظرة في المنهج التاريخي، سمات المنهج التاريخي، المنهج التاريخي عند المعارضين، المنهج التاريخي بين المنهج المقارن والمنهج الوصفي.

أما المبحث الثاني فقد تضمن، تطبيق المنهج التاريخي في اللغة العربية ثم الخاتمة وثبت المصادر.

المناهج اللغوية هي الطرق التي يسير عليها العلماء في علاج المسائل والتي يصلون بفضلها إلى ما يرمون إليه من أغراض .

أما المنهج التاريخي فقد حده رمضان عبد التواب بـ المنهج الذي يدرس اللغة دراسة طويلة، بمعنى أنه يتتبع الظاهرة اللغوية في عصور مختلفة وأماكن متعددة ليرى ما أصابها من التطور، محاولا الوقوف على سر هذا التطور وقوانينه المختلفة [١] ولم يند الحجازي في حده للمنهج التاريخي عن قول رمضان فهو يقول: هو المنهج الذي يبحث في تطور اللغة عبر القرون ويدرسها من جميع جوانبها الصوتية والصرفية والنحوية والدلالية تاريخياً وبتتبع ما يطرأ عليها من تطور فيها وفي ظواهرها [٢]. ونجد حد عمايرة أكثر دقة فهو يقول: خلال المرحلة الطويلة يصف الكلمة صوتا وصرفا ومعنى أنه يهتم ببيان ما طرأ من تغير عليها [٣]. إذن يمكن القول إن المنهج التاريخي يكشف بالضرورة هذه القوانين وهذا ما ادركناه من خلال حد المنهج التاريخي، فعناصر اللغة من ألفاظ وتراكيب وقوالب لا تبقى ثابتة بل تتحول وتتبدل، لذا فان البحث في اللغة يكون على

أ- أساس النظر إلى المراحل التي مرت بها خلال مراحل الزمن بالنسبة إلى كل ناحية من نواحيها أصواتا وصيغا ومعاني وطرائق تركيب الكلام(٤).

ب- تصور شكل اللغة الأصلية التي انبثقت عنها اللغة(٥).

ج- تتبع الظواهر اللغوية ومعرفة نسبة شيوعها في المستويات اللغوية المختلفة عبر القرون(٦). وما طرأ عليها من تغيرات صوتية عبر رحلة استعمالها مكانا وزمانا وكذلك يبين معناها (٧).

يمكن أن نخلص مما سبق:

١. إن الظاهرة المراد تتبعها تاريخيا يكون بتحديد المكان وإطلاق الزمن.
٢. إن تاريخ تغير المادة اللغوية قائم أصلا على تغير الجماعة اللغوية وعلى كيفية تقلب المادة اللغوية من الأجيال السابقة إلى الأجيال اللاحقة.
٣. النظر عبر المنهج التاريخي يكون بتتبع الظاهرة من الزمن الحالي إلى ابعد مدة زمنية أو العكس.

غاية المنهج التاريخي:

يمكننا أن تتبين غاية المنهج التاريخي بما يأتي:

أ. انطلاقا من مبدأ جبرية الظواهر اللغوية التي تقرر أن هذه الظواهر لا تسير وفقا لإرادة الأفراد أو تبعا للأهواء والمصادفات وإنما تسير وفقا لقوانين لا يستطيع الفرد تعويقها أو تغييرها سبيلا، ولا تقل في ثباتها وصرامتها وعدم قابليتها للتخلف عن النواميس الخاضعة لها ظواهر الفلك.

ب. بيان علة اضمحلال اللغات أو تطورها(٨) ويدرس مدى انتشارها أو انحسارها، فمثلا يدرس من خلال المنهج التاريخي علة انتشار اللغة العربية في الأندلس وانحسارها واضمحلالها في شبه القارة الهندية واسبانيا.

جـ. تاريخ اللغة ضروري وذلك لوسمها بالظاهرة الاجتماعية، فاللغة لا يقال إنها ظاهرة اجتماعية إلا بالعودة إلى تاريخها، فكثير من اللغات كانت مستعملة إلى وقت قريب، ولم تعد مستعملة اليوم، إذ بقي بعضها مستعملا على مستوى الطقوس الدينية(٩).

هـ. عدم تعامل المنهج التاريخي مع القضايا الغيبية والتي لا تستند على الوثائق أو ما هو وراء الطبيعة وترك هذه الموضوعات الشائكة للفلاسفة والميتافيزيقيين(١٠).

أهمية المنهج التاريخي:

إن عملية الترجيح في أفضلية المناهج يعد عملا لا يمكن الركون إليه، وترى الباحثة أن القول بالأفضلية والأهمية– وهم– لا يمكن الأخذ به.

قال أحد الباحثين: يعد المنهج التاريخي من أهم المناهج في مجالات البحث اللغوي الحديث [١١] وينفرط عقد كلام الباحث بقول الدكتور نعمة العزاوي: تعددت مناهج البحث اللغوي وتباينت اتجاهاته لتعدد الأغراض التي تدعو إلى دراسة اللغات، فلكل غرض منهج يكون الوسيلة المثلى لتحقيقه فلا يصلح غيره لأن يحل محله أو يكون بديلا منه [١٢] زيادة على ذلك إن تطبيق منهج ما لا يتم في أغلب الأحيان إلا بعد الفراغ من دراسة اللغة على منهج آخر، فالدراسة التاريخية للغة ما تتوقف درجتها، دقة واتقانا على دقة الدراسات الوصفية للغة موضوع الدرس وعلى اتقانها [١٣].

نظرة في المنهج التاريخي:

النظر في اللغة قضية ما انفك الإنسان يلج فيها من أبواب فكرية مختلفة، فقد نجد ناظرها فيلسوفا يتكلم بحلم المنطق والتجريد، وطورا يتخذ منهجا يعتقد بكماله، فهو يجري في فلكه مدعيا أن كل من يخرج على مضماره لا محالة مخطئ والذي يهم في هذا البحث هو التعرف على نشأة المنهج التاريخي، وتحديد معالمه وكيفية تطبيقه. والبحث في قديم اللغة أمر شاغل درج عليه القدماء وجادة طرقها بعض المحدثين. فالقدماء قبل نهاية القرن الثامن عشر كانوا يبحثون في أصل اللغة عموما [١٤]، ويدرسون اللغات التي تكلم بها والتي تكتب، ويتتبعون تاريخها بمساعدة أقدم الوثائق التي كشف عنها، ولكنهم مهما أوغلوا في هذا التاريخ فإنهم لا يصلون إلا إلى لغات قد تطورت وتركت خلفها تاريخا ضخما لا تعرف منه شيئا، لذا عد بعض المحدثين دراسة أصل اللغة خارج اختصاص اللغوي، فهي مسألة سيكولوجية تحتاج إلى ما هو مفقود دائما من الأدلة التاريخية، وكان نهاية القرن الثامن عشر نقطة تحول خطيرة في الدراسات اللغوية [١٥] وعلة هذا التحول هي اكتشاف اللغة السنسكريتية[١٦] التي جاءت بثورة في مناهج التفكير ووجهات النظر. وحل رموز اللغة السنسكريتية مهد السبيل لإنشاء علوم القواعد التاريخية والمقارنة [١٧] والتأصيل التاريخي هو هدف المنهج المقارن[١٨] الذي مهد السبيل إلى المنهج التاريخي فانتقل العلماء من الموازنة بين اللغات الهندية الأوربية إلى الموازنة بين مظاهر كل لغة منها في مراحلها

المختلفة ومن البحث في تفرع هذه اللغات بعضها من بعض وتفرعها عن أصل واحد إلى البحث في الطريقة التي تسلكها كل لغة منها على حدتها في تطورها وارتقائها من جميع نواحيها . وأول من طبق هذا المنهج (جاك لويس مريم) والعالم (دينز)[١٩] وتطبيق جريم يتمثل بقانونه المسمى جريم والذي أعلنه عام ١٨٢٢م وأوضح أن اللغات الجرمانية إذا انتظم صوت (F) كلماتها قابلة في الكلمات المشتركة في اللاتينية واليونانية والسنسكريتية الحرف (أ) ويقابل (أ) في اللغات أخرى حرف (b). أما الحرف الذي يرمز له بدائرة فيها خط أفقي مائل (شبه الثاء بالعربية) يقابله في اللغات الأخرى (T)، وعلل جريم هذه التقابلات بافتراض حدوث تغير صوتي في مراحله ما من تاريخ الجرمانية[٢٠] إذن جريم كان من أوائل اللغويين الذين درسوا اللغات درسا تاريخيا الهدف منه الكشف عن التغيرات التي تطرأ عليها ولذا عده بعضهم مؤسس المنهج التاريخي في دراسة اللغة [٢١]، وما ذكر هو الصواب، فملامح المنهج نجدها في قانون جريم القائم على القول بالتغيرات وإيضاح التطور عبر الزمن. وقد استفاد العالمان جاك لويس جريم ودينز من بحوث في آداب اللغات الأوربية بالعصور الوسطى ومن جماعة مؤرخي الأدب من أشهرهم (ولات باريس) و(رينوآر)[٢٢] وتأثرت اغلب العلوم في القرن التاسع عشر بنظرية دارون التي كانت بدعة العصر عند ظهورها ولم يكن علماء اللغة بدعا من غيرهم في هذا التأثير[٢٣] فصار البحث عن التغيرات اللغوية سمة العصر فانتقل من دائرة ضيقة وهي البحث في اللغات الهندية الأوربية إلى دائرة عامة ترمي إلى كشف القوانين التي تخضع لها كل لغة إنسانية في تطورها وارتقائها من حيث أصواتها وقواعد تصريفها [٢٤] وكان في مقدمة الباحثين العالم الألماني (ماكس مولر) وتبعه العلامة المستشرق الانجليزي سيس (Archibald Henry).

ويمكن أن نخلص مما سبق إلى أن:

١. النظر في أصول اللغة هو طريق المنهج المقارن والتاريخي.
٢. المنهج المقارن مهد الطريق لنشوء المنهج التاريخي.
٣. محاولة تطبيق ما يشيع في العصر من وجهات نظر أو نظرية تثبت صحتها فيعلم من العلوم، فنظرية التطور كانت علة النظر إلى رصد التطور في اللغة.
٤. تلازم المنهج التاريخي مع المقارن لتقارب خطوات البحث بينهما.

وعلينا أن نفرق بين المنهج التاريخي وتاريخ اللغة، والدكتور حاتم صالح الضامن شبه هذا العلم الأخير بعلم طبقات الأرض[٢٥] أما المنهج التاريخي فيبحث عن التغير في اللغة عبر الزمن، وبله مصطلح التطور لحمله دلالة الارتقاء والتغير إلى الأفضل فالدكتور محمود فهمي حجازي يرى انعدام الأفضلية بين صيغة وصيغة أو صوت وصوت لذا فهو يفضل استعمال لفظة تغير بدل تطور[٢٦].

أما علم اللغة التاريخي فهو يدرس تاريخ لغة من اللغات، ومن الوهم القول بالاكتفاء بالمنهج التاريخي الذي يهتم بالمراحل المبكرة في تاريخ كل لغة من اللغات، أي أقدم المراحل المتاحة وأقربها نسبيا من اللغة الأقدم [٢٧]. وذلك لاعتماد المناهج اللغوية بعضها على بعض، فالوضوح المنهجي يتيح وجود دراسات وصفية للمستويات اللغوية المختلفة عبر القرون، وبتكامل هذه الدراسات الوصفية يمهد طريق البحث التاريخي اللغوي بالمعنى الدقيق للكلمة أي البحث في تاريخ اللغة من أقدم نص مدون إلى هذا الوقت[٢٨].

سمات المنهج التاريخي:

يعتمد المنهج التاريخي على اللغة المكتوبة، فالحدث المكتوب هو أساس البحث فيه، وترى الباحثة إن هذا شيء بديهي فالحدث المنطوق ينعدم بانقضاء زمن إنتاجه وتحوله إلى ذبذبات صوتية تنتشر في الهواء، أما الحدث المكتوب فهو مقيد حتى زمن اندثار القيد. والباحث في الوثائق غير مهتم بعلة نشوء الكتابة[٢٩]، وليس أمام الباحث إلا أن يلجأ إلى الكتابة وهي وسيلة عاجزة لا تمثل المنطوق تمثيلا صحيحا [٣٠] ويرى مندريس أهمية الكتابة؛ فالمكتوب يبقى في حين تتبدد الألفاظ والكلمة إذا سجلت عندما تخرج من الفم استقرت إلى الأبد، كأنها وثيقة إثبات[٣١]، فالنص المكتوب لا يعتريه تحويل أو تبديل ويمكن إجمال فائدة الكتابة[٣٢] بما يأتي:

١. تحافظ على حقيقة الاستعمال القديم للغة.
٢. استعمال قواعد النحو استعمالا متناهيا بالدقة.
٣. انعدام التنغيم والدلالات الصوتية المصاحبة للحدث المنطوق.
٤. استعمال المفردات استعمالا لا يند منه خطأ.

٥. واللغة المكتوبة هي الطابع المميز للغات المشتركة، واللغة المشتركة بطبعها في نزاع دائم مع اللغة المتكلمة، لأن هذه الأخيرة في خضوعها للتأثيرات الفردية، تميل دائما إلى الابتعاد عن المثل الأعلى الذي تحتذي به اللغة المشتركة(٣٣).

٦. والقول بثبات اللغة المكتوبة لا يعني أنها لا تتأثر باللغة المنطوقة فاللغة المكتوبة معرضة بدورها لضربات اللغة المتكلمة (٣٤)، وأغلب ظن الباحثة أن النص الذي يكتب في عصر من العصور متبعا قاعدة نحوية بلا ريب تتغير طريقة كتابته في العصر التالي إذا مس القاعدة النحوية أو الإملائية تغيير ما.

- ويدرس المنهج التاريخي اللغة دراسة طولية، فهو يتتبع الظاهرة اللغوية في عصور مختلفة لمعرفة ما أصابها من التطور(٣٥).
- وقد ذهب الدكتور رمضان عبد التواب إلى عدم تحديد المكان وهذا مخالف لما تبيناه سلفا، ونزيد عليه إن الدراسة التاريخية لا تتم إلا بعد الانتهاء من الدراسة الوصفية التي أهم شروطها تحديد الزمان والمكان، والتفكير المنطقي يفرض وجود قاسم مشترك عند الموازنة غير لغة الأم وهو المكان، والقول بحركة المنهج متأتية من حركة الزمان.

ومن سمات المنهج التاريخي الابتعاد عن يقينية النتائج، ونقصد بذلك غلبة الشك على اليقين وضرورة دعم استنتاجاته بشواهد أخرى مثل ملاحظات العلماء القدماء أو الكلمات التي تقترضها اللغة المدروسة من اللغات الأخرى، أو يدعم موقفه بالمعارف العظيمة التي تحققت بدراسة ميكانيكية النطق والسمع (٣٦).

المنهج التاريخي عند المعارضين:

علمنا أن المنهج التاريخي غاية النهاية فيه هو رصد التغيير وتعيينه، ومن ثم دراسته. ويرجع الفضل في توكيد هذا الاتجاه إلى المحدثين من علماء القواعد فمخالفون عدد من الفئات مثل المدرسة الايطالية والمدرسة الانجليزية والذي يمثلها (سيس) و(سويت) و(جيسبرسن) والذين ذهبوا إلى إن جميع هذه الظواهر بما فيها من تطور صوتي ترجع إلى أمور يقوم بها الأفراد وتنتشر عن طريق التقليد. كذلك عارض (بريال) الذي إن سلم بظواهر الصوت خالف بظواهر الدلالة (٣٧).

والتقليل من دراسة اللغة تاريخيا صفة بعض علماء اللغة الوصفيين، قال الدكتور نعمة رحيم العزاوي: لقد قلل علماء اللغة الوصفيين من القيمة العلمية لدراسة اللغويات

التاريخية التي تقوم على معطيات الوثائق والمدونات، ودأبوا على أن يستبدلوا بهذا الطريقة في البحث طرائق أخرى يعتقدون أنها أكثر جدوى وأدق نتائج، كما صرفوا همهم إلى دراسة اللغات الحديثة التي يتداولها الناس، وما يتشعب عنها من لهجات محلية،غير أن هناك لغويين لم يكتفوا بالغض من قيمة علم اللغة التاريخي بل اخرجوا هذا العلم من العلوم اللغوية [٣٨]. ومن هؤلاء (كريستال) و(سوسي) وعلل الدكتور هذا الغض والتقليل باهتمام(كرستال) باتجاهه إلى الطريقة التجريبية في البحث والاهتمام بعلم اللغة التطبيقي أما سوسير فمعروف الاتجاه.

ودفع هذا الغض والتقليل ضرورة لما عهدناه من أهمية المنهج التاريخي، وقد كفانا الدكتور نعمة العزاوي مئونة الرد[٣٩].

المنهج التاريخي بين المنهج المقارن والمنهج الوصفي:

عرفنا أن المنهج التاريخي انبثق من المنهج المقارن، فهو الذي يسر له السبيل ففي أواخر القرن التاسع عشر ظهرت محاولات إخضاع البحوث اللغوية لمناهج البحث العلمي وتوجهها إلى الأغراض نفسها التي ترمي إليها العلوم، وجعل غايتها الأساسية الوصول إلى كشف القوانين الخاضعة لها الظواهر اللغوي[٤٠].

واللغويون بعد اكتشاف السنسكريتية وانبهارهم بها– فاللغة السنسكريتية مهما كان قدمها بنية رائعة أكمل من الإغريقية وأغنى من اللاتينية وهي تنم عن ثقافة أرقى من ثقافة هاتين اللغتين [٤١]– انتهجوا سبيل المقارنة الذي كان من نتائجه تقسيم اللغات على أسر، وهذه إشارة إلى الصلات تاريخية أو صلات قرابة، فالدراسات اللغوية المقارنة تعتمد على التقابلات المطردة أو المنتظمة من حيث البنية الصوتية بوجه خاص بين الكلمات المتطابقة أو المقارنة، معنى هذه الكلمات المأخوذة من لغتين متقاربتين أو من لغات متقاربة، وهذه التشابهات لا تفسر إلا على إن هاتين اللغتين– أو هذه اللغات تنتميا– أو تنتمي إلى مرحلة أسبق كانا أو كانت– فيها أشد تقاربا [٤٢].

نخلص من هذا أن تاريخ اللغة مرتبط– ارتباطا لا يفصم عراه– مع المنهج المقارن، فالبحوث اللغوية المقارنة ذات سمة تاريخية، ولكنها كانت تحاول أن ترتب المستويات اللغوية واللغات المختلفة المنتمية إلى أسرة واحدة ترتيبا يهتم في المقام الأول بالصيغ والمستويات المغرقة في القدم، والتي يمكن أن يتعرف منها الباحث على الصيغة

الأصلية أو الشكل الأقدم الذي خرجت عنه باقي الصيغ ولهذا فقد وصف هذا العمل بأنه تاريخي مقارن وقد ظل بعض الباحثين يتصور أن علم اللغة يمكن أن يكتفي بالمراحل المبكرة في تاريخ كل لغة من اللغات، أي أقدم المراحل المتاحة وأقربها نسبيا من اللغة الأقدم [٤٣] إذن التأصيل التاريخي والكشف عن العلاقات بين اللغات المدروسة هو هم المنهج المقارن، ولا يتأتى هذا إلا بالعودة إلى أقدم النصوص والوثائق التاريخية، أما تتبع تاريخ الظاهرة فهو هم المنهج التاريخي.

وقد عدت القواعد المقارنة شكلا من أشكال علم اللغة التاريخي، فليس للباحث اللغوي بحث القواعد المقارنة للغة ما، إن لم يدرس تاريخ اللغة المستهدفة بالطريقة المقارنة التي ظهرت أول مرة مختلفة عن الدراسة التاريخية التي أعقبتها[٤٤]، لقد أحس اللغويون بضرورة الانتقال من البحث بالمقارنة إلى عملية أوسع، فالأصل لا بد له من أن يتفرع ليشمل الأهم قال أحد الباحثين والى هذا النحو سوف يستمر علمنا الناشئ بالتطور والنمو، ويسعى شيئا فشيئا إلى تغيير اسمه من قواعد مقارنة، وهي تسمية لا تخلو من الالتباس إلى اسمه الحقيقي أي القواعد التاريخية [٤٥] فالمنهج المقارن امتداد للمنهج التاريخي في أعماق الماضي السحيق وينحصر في نقل منهج التفكير، الذي يطلق على العهود التاريخية إلى عهود لا نملك منها أي وثيقة [٤٦].

ثم ظهرت العناية باللغة الحية على يد عدد من العلماء[٤٧] أولهم واضع المنهج الوصفي (فرديناند سوسير) الذي ضاق بقصر الدرس اللغوي على الوجهة التاريخية حتى اتصل بما قدمه (اميل دور كايم) الذي عالج الظواهر الاجتماعية بعدها أشياء والشيء عنده ينتظم كل أنواع المعرفة فأحال سوسير هذه المعالجة إلى القضايا اللغوية التي عدها أشياء شأنها شأن الوقائع الاجتماعية[٤٨]. والمنهج الوصفي الخطوة الأولى في المنهج التاريخي إذ بدونه ينعدم المنهج التاريخي، فلا مقارنة بين المراحل الزمنية إذا لم يتم وصف كل مرحلة، و تبدأ الدراسة التاريخية بدراسة ظاهرة من الظواهر في عصر تاريخي مبكر، ثم تنزل به إلى عصور أحدث، وهي بذلك تشبه الخط العمودي في حين تعالج الدراسة التعاصرية الوصفية ظاهرة من الظواهر إلى جانب الظواهر المرتبطة بها في العصر نفسه، وبهذا تشبه الخط الأفقي، تعير الدراسة التاريخية جل اهتمامها إلى قضايا التعاقب معدة تعاقب الأزمنة والعصور عنصر مهم من عناصر تطور اللغة وتغيرها وتبدلها، بينما تتوجه الدراسة

التعاصرية إلى الأحداث اللغوية المعاصرة التي تكن مرآة صادقة ينعكس فيها جوهر اللغة وشكلها وطبيعتها، فتسعى من خلالها إلى تحليل التنظيم اللغوي كواقع حالي [٤٩] والاستقرار في اللغة معدوم فكل جزء من اللغة يخضع للتغير [٥٠] ولا ريب أن قول الباحثين بصعوبة الفصل بين المنهج الوصفي والتاريخي فيه قدر من الصحة إلا أننا لا نستطيع أن نسلم بقوله يأتي أحدهما مكملا للآخر وذلك من الناحية التطبيقية في أقل تقدير [٥١] لأن المنهج الوصفي هو خطوة أساسية لقيام المنهج التاريخي، والمنهج الوصفي لا يحتاج إلى المنهج التاريخي وقولنا هذا لا يعني عدم التقارب بين المنهجين إلا أننا لا نعدم الفرق.

فالمنهج التاريخي المتحرك Dynamic تطوري لأنه يدرس العلاقات بين عناصر متعاقبة زمنيا فهو لا يدرس العلاقات في حالة الثبات[٥٢].

أما الوصفي فهو علم ساكن إذ فيه توصف اللغة بوجه عام على الصورة التي توجد عليها في نقطة زمنية معينة ومثل سوسير الفرق بما يجري في دراسة النبات حين تقدم شريحة مقطوعة قطعا أفقيا وأخر مقطوعة قطعا راسيا فالقطع الأفقي يمثل الدراسة الوصفية أما القطع الراسي فيمثل الدراسة التاريخية[٥٣] وتتحاور المصطلحات على المنهجين لذا نجد (ماريو باي) يعلل صعوبة الفصل بين المنهجين إلى هذا التشاكل إذ يقول: لعلم اللغة الوصفي هي أن يصف، ولعلم اللغة التاريخي هي أن يعرض التغيرات اللغوية فمن الصعب كثيرا الفصل بين النوعين في مجال التطبيق العملي، ذلك لأن كل المصطلحات التي استعملت تحت العنوان الوصفي قابلة من الناحية العملية للاستعمال كذلك في الفرع التاريخي ومن هذه المصطلحات وحدة الأصل الطبقة السفلى، الطبقة العليا، الطبقة الإضافية، إعادة التركيب، القانون الصوتي، القياس، التيسير[٥٤] وهذه مصطلحات استقراها الباحث تحسين الوزان من كتاب ماريو باي، والحق أننا لا نستطيع أن نركن إلى صحة جميعها فبعض منها قد قصر استعمال عن الباحثين وأخير نجد الباحثين المنهجيين: التاريخي والوصفي، يدخلان في شكل انسجامي تعاوني مثمر [٥٥].

المبحث الثاني
تطبيق المنهج التاريخي في اللغة العربية:

لما كانت العربية قد قصرت عنها الدراسة الوصفية كانت دراستها من الناحية التاريخية معدومة، أما قديما فلم نلحظ دراسات تاريخية ذات شان [٥٦] وذلك لحصر مدة البحث في عصور الاحتجاج وإن ما أعقبت تلك المرحلة لم يقع ضمن دائرة الدرس بل نظر إلى ما جد فيه من صيغ ومفردات وتراكيب على إنها خارجة عن اللغة المثلى التي استقيت من كلام العرب الذي عاشوا في عصور الاحتجاج [٥٧]، ورجح الدكتور نعمة أن تكون كتب اللحن التي جاءت لتنقية كلام العرب دراسات في التاريخ اللغوي للعربية[٥٨].

ولا نعدم في جهود اللغويين العرب شذرات من المنهج التاريخي[٥٩] وعربيتنا مهيأة أكثر من غيرها للدرس تاريخيا، فالعربية الفصحى في عصرنا متميزة عن عربية الجاهلية وكلتاهما متميزة من عربية العصر العباسي، وهكذا كل عصر من هذه العصور وسواها بعدها، حلقة في سلسلة التطور التاريخي للعربية[٦٠] وحاجة العربية إلى رصد هذه التغيرات كبيرة وذلك[٦١] للتعرف على الجديد من الصيغ والتراكيب وتحديد هويتها وتبين المعاني البلاغية والإسلامية والإفادة من المنهج في مجال الدراسات المعجمية للوصول إلى معجمات تكمل معجماتنا القديمة.

والعودة إلى تاريخ العربية عسير لأن لغتنا العربية تفتقر إلى الحلقات الأولى من تاريخها إذ ليس لدينا نصوص تشير إلى تلك المراحل التاريخية إن الشعر الجاهلي أو قل الأدب الجاهلي عامة لا يمكن عده مادة أولى تمثل طفولة العربية نصوص قد ضاعت أو إننا لم نعثر عليها، ولم يحدث للغة العربية ما حدث للغات السامية الأخرى، فالتنقيب العلمي الحديث دل على مواد كثيرة في اللغات الأكدية والآشورية والعبرية والحبشية أفادت البحث اللغوي كثيرا ودلت على إمكان القيام بوضع تاريخ محكم الحلقات في هذه اللغات [٦٢] وعلماء العربية لم ينظروا إلى الاستعمال الجديد على انه تطور بل حكموا عليه بالخطأ فهذا الأصعب.

ينكر اللغويون لفظة (زوجه) ويحتجون بقوله تعالى: ﴿أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ﴾[٦٣] فإن فقيل إن الشاعر ذا الرمة استعمل لفظة (زوجه) يقول:

اذو زوجـــه بالمصـــرام ذو خصـــومة أراك لهـــا فـــي البصـــرة اليـــوم ثاويـــا

فيقول الرافضون لمسألة التطور، ذو الرمة ليس بحجة، إذ طالما أكل البقل والمالح. إن التطور في اللغة يمكن أن يسير في طرق كثيرة والعوامل المؤثرة في تطور اللغة

لا يمكن أن تحصر، فللحوادث التاريخية والمصادفات وغيرها أثر في مجرى التطور اللغوي[٦٤]، وهناك قضايا كثيرة في مجالات الأصوات وبناء الكلمة وبناء الجملة، والدلالة تدخل في إطار علم اللغة التاريخي فدراسة التغيير الصوتي في العربية تعد دراسة صوتية تاريخية، ودراسة صيغ الجموع في العربية بتتبع توزيعها ونسبة شيوعها في المستويات اللغوية المختلفة عبر القرون موضوع من موضوعات علم الصرف التاريخي، ودراسة جملة الاستفهام في العربية عبر القرون تعد دراسة نحوية تاريخية [٦٥].

ولنا وقفة عند مستويات اللغة نضرب بها صعدا بعض الأمثلة وصولا إلى أقرب صورة ترسم التغيير.

ففي المجال الصوتي علينا أولا أن ندرك إن التحول الصوتي لا يتم دفعة واحدة[٦٦] وان النزعات الصوتية المطردة تصطدم مع نزعات من طبيعة مختلفة.

وقد أدرك العرب بحسهم اللغوي أهمية وصف الأصوات وعملهم هذا لم يخرج عن نطاق هدف تقويم اللسان ولنا وقفة عند بعض الأصوات للتعرف على تاريخها وما أصابها من التطور وسنسير صعدا في وصفها عند القدماء. حتى وقتنا الحاضر ليكون هذا الصعود أنموذجا للمنهج التاريخي.

الضاد يصف سيبويه الضاد بقوله ومن بين أول اللسان وما يليه من الأضراس مخرج الضاد [٦٧].

وإذا انتقلنا إلى المبرد نجده يقول الضاد ومخرجها من الشدق فبعض الناس تجري له الأيمن من القولين السابقين نستشف أن مخرج الضاد من حافة اللسان وهذا ما نلحظه أيضا عند ابن جني الذي يقول: ومن أول حافة اللسان وما يليها من الأضراس مخرج الضاد إلا انك إن شئت تكلفتها من الجانب الأيمن وإن شئت من الجانب الأيسر [٦٨].

نلحظ من النص أن هناك نوعا من التطور البسيط الذي لحق الضاد، وهو صفة التكلف فهي قضية لا تجري على اللسان بيسر وسهولة وليس في الحروف ما يعسر على اللسان مثله وقلة من يحسنه ونطق هذا الصوت المشكل لم يزل منذ عهد سيبويه حتى الآن مبهم فهو موجود في لهجات منطقة ظفار كالمهرية والشحرية وجنوب بلاد العرب وفي لهجات أهل الجزيرة بالسودان [٦٩].

أما الضاد الآن فهو صامت مجهور سني مطبق انفجاري[٧٠]. ويذهب برجستراسر إلى القول إن الضاد القديمة حرف غريب جديد غير موجود على حد كلمة في لغة من اللغات العربية والنطق الضيق للضاد لا يوجد الآن عند احد من العرب[٧١] أما صفة الضاد فهي رخوة على حد قول سيبويه[٧٢] والضاد القديمة لا يقابلها شيء من الأصوات ولولا الإطباق لخرجت ضاد من الكلام لأنه ليس شيء من موضعها غيرها [٧٣] أما في الحاضر فان الضاد تقابل الدال المطبقة المفخمة.

وترى الباحثة أن التطور بغض النظر عن أسسه وثوابته قد أصاب صوت الضاد صفة ومخرجا إلا أن هذا التطور قد جرى في السنة الأعم الأغلب بدليل قول إبراهيم أنيس الذي نستطيع تأكيده هنا هو أن الضاد القديمة قد أصابها بعض التطور حتى صارت إلى ما نعهده بها من نطق ولا يزال العراقيون حتى الآن وبعض البدو ينطقون بنوع من الضاد [٧٤].

أما القاف والطاء فهما مجهوران عند القدماء مهموسان عند المحدثين[٧٥]. أما في مجال الصرف فالتطور جم ونستطيع أن نلحظه في الصيغ القوية (أي الشاذة) التي تقابل الصيغ الضعيفة أو العليلة التي تستسلم للتنظيم الذي يفرضه القياس [٧٦] وقد تستسلم هذه الصيغ القوية للوهن مع الزمن وهذا كثير في العربية ويكفينا نظرة قصيرة في أي معجم حديث ولاسيما إصدارات المجمع العلمي في القاهرة– كذا الكثير من الصيغ التي اندثر استعمالها والتي تطالعنا في كثير من المعجمات القديمة نحو: الهنديي والخيزلي، والفيعلول التامة العيسجور والفوال والقرواح والفيعال الهندام (الصارم).

أما على المستوى النحوي فنجد كثرة استعمال هل مع أم المعادلة في الاستفهام، نحو: قولهم هل ذهبت إلى البصرة أم إلى الموصل والقاعدة هي: أذهبت إلى البصرة أم إلى الموصل.

أما في مجال الدلالة:

للوصول إلى أصل وضع الكلمة أو تاريخ حياتها على الباحث أن يجمع ما أمكن ما ورد من معانيها ويرتبها ترتيبا تاريخيا، يوضح تدرج التحريف في الدلالة المعنوية للكلمة باحثا عن المجازي منها والحقيقي عله يستنبط اسبق هذه المعاني وابسطها وأقربها للفطرة أي المعنى الحقيقي وهو المعنى الذي أراده الواضع.

فالقلعة الحصن الممتنع من الجبل منقولة عن القلعة بمعنى أكبر صخرة تنقلع عن الجبل(٧٧) ثم صار معناها المعروف.

ونحو الجذل أو الجذول، انتصاب الحمار الوحشي.

والجذل أصل الشيء الباقي من شجرة.

أو أصل كل شجرة حين يذهب رأسها.

وعود ينصب للإبل الجربي ومنه قولهم: أنا جذيلها المحلك أصل الشجرة تحتك به الإبل فتشتق منه.

وارتياح الأجرب إلى الحك وما يصحبه ويعقبه من لذة هو الجذل بعينه وان الجذلان بمعنى الفرحان(٧٨).

الخاتمة

يمكن أن نخلص مما سبق:

١. حاجة العربية إلى إعادة النظر في قضاياها اللغوية على وفق المناهج اللغوية.
٢. قصر دراسة اللغة على زمن الاحتجاج منع القول بالتطور الذي لا ينفك عن أية لغة.
٣. العربية بتراثها الضخم أكثر اللغات قبولا للمنهج الوصفي.
٤. المنهج التاريخي والمقارن والوصفي مناهج متكاملة يشد أولها آخرها.
٥. التغيير اللغوي يقال به إذا لم يمس ثابتا من ثوابت اللغة.
٦. عملية الترجيح في أفضلية المناهج وهم مدفوع.
٧. النظر في أصول اللغة هو طريق المنهج المقارن والتاريخي.
٨. المنهج المقارن مهد الطريق لنشوء المنهج التاريخي.
٩. محاولة تطبيق ما يطرأ في العصر من وجهات النظر التي تسود.

١٠.حاجة العربية إلى دراسة التطورات اللغوية ورصد تغير الصيغ قائمة ولا يكون هذا إلا بالمنهج التاريخي.

١١.حاجة العربية إلى المعجميات التاريخية. إذ أن المكتبة العربية ما زالت تعاني من هذا النقص.

المصادر والمراجع

١. أسس علم اللغة: ماريوباي ترجمة د.احمد مختار، عالم الكتب مصر، (١٩٨٣م).
٢. أصوات اللغة: د.عبد الرحمن أيوب، مطبعة الكيلاني، مصر، (١٩٦٨).
٣. الأصوات اللغوية: إبراهيم أنيس، ط٤، مكتبة الانجلو، القاهرة، (١٩٧١).
٤. أضواء على الدراسات اللغوية: د.سابق خورسا، عالم المعرفة، الكويت.
٥. الألسنية (علم اللغة الحديث) د.ميشال زكريا– بيروت، (١٩٨٣).
٦. البحاثة اللغوية: محمد عبد الجواد، مطبعة العلوم، مصر د ت.
٧. تاريخ علم اللغة: جورج مونين، ترجمة بدر الدين القاسم، دمشق، (١٩٧٢).
٨. التطور اللغوي مظاهره وعلله وقوانينه: رمضان عبد التواب، مصر.
٩. التطور النحوي للغة العربية: برجستراسن، ترجمة رمضان عبد التواب، (١٩٨٢).
١٠.دراسات في علم اللغة: د.كمال بشر، دار المعارف مصر، (١٩٧١).
١١.دراسات في اللغة: إبراهيم أنيس، بغداد، (١٩٦١).
١٢.سر صناعة الإعراب: ابن جني، تحقيق مصطفى السقا محمد الزفزاف إبراهيم مصطفى، ط مصر، (١٩٥٤).
١٣.علم اللغة: علي عبد الواحد وافي، الفجالة– مصر، (١٩٧٢).
١٤.علم اللغة بين التراث والمعاصرة: د.عاطف مدكور، دار الثقافة– القاهرة د ت.
١٥.علم اللغة مقدمة للقارئ العربي: د.محمود السعران، دار النهضة– بيروت د ت.
١٦.علم اللغة العام: فردينان دي سوسير، ترجمة د.يوئيل يوسف، العراق، (١٩٨٨).
١٧.علم اللغة العربية: د.محمود فهمي حجازي، دار الرسالة – الكويت، (١٩٧٨).
١٨.مقدمة اللغة وخصائص العربية: محمد مبارك، ط ٥، (١٩٧٢).
١٩.الكتاب: سيبويه، تحقيق عبد السلام هارون، ط٢، (١٩٧٧).

٢٠. اللغة ج فندريس: ترجمة عبد الحميد الدواخلي ومحمد القصاص، الانجلو المصرية– مصر، ٥٥٠.
٢١. اللغة والتطور: د.عبد الرحمن أيوب، جامعة الدول العربية، مصر، (١٩٦٩).
٢٢. المدخل إلى علم اللغة: د.رمضان عبد التواب، مكتبة الخانجي، القاهرة، (١٤٠٥ – ١٩٨٥).
٢٣. مدخل إلى علم اللغة: د.محمود فهمي حجازي، دار الثقافة، القاهرة، (١٩٧٨).
٢٤. مدخل إلى علم اللغة: د.محمد حسن عبد العزيز، القاهرة، د ت.
٢٥. المزهر في علوم اللغة وأنواعها: السيوطي عبد الرحمن جلال الدين، تحقيق محمد احمد جاد المولى ومحمد أبو الفضل إبراهيم وعلي محمد البجاوي، ط ٤، دار أحياء الكتب عيسى، (١٩٥٨).
٢٦. المقتضب: أبو العباس المبرد، (ت٨٥٢هـ)، تحقيق محمد عبد الخالق عظيمة، عالم الكتب– بيروت.
٢٧. المستشرقون والمناهج اللغوية: د.إسماعيل أحمد عمايره– الأردن، (١٩٧٤).
٢٨. مناهج البحث في اللغة: د.تمام حسان، دار الثقافة– الرباط، (١٩٧٤).
٢٩. مناهج البحث اللغوي بين التراث والمعاصرة: د.نعمة رحيم العزاوي، مطبعة المجمع العلمي– بغداد، (٢٠٠١).
٣٠. منهج البحث في الأدب واللغة: لانسون ومايبه، ترجمة د.محمد مندور، دار العلم للملايين– بيروت، (١٩٨٢).
٣١. منهج البحث اللغوي بين التراث وعلم اللغة الحديث: علي زوين، دار الشؤون الثقافية بغداد، (١٩٨٦).
٣٢. النشر في القراءات العشر: ابن الجزري تصحيح علي محمد، المكتبة التجارية– القاهرة.

المجلات:

– مجلة الأستاذ، جامعة بغداد/ كلية التربية/ ابن رشد العدد ١٦، (١٩٦٩).

دراسات في مناهج البحث اللغوي الحديث:

– المنهج التاريخي– تحسين عبد الرضا الوزان.

– مجلة كلية الآداب– جامعة القاهرة– العدد الأول من المجلد ٢١ مايو (١٩٥٩).

الهوامش

(١) المدخل إلى علم اللغة: ١٩٩.

(٢) نفسه: ١٦٩.

(٣) ينظر: علم اللغة، علي عبد الواحد: ٥٧.

(٤) ينظر: فقه اللغة وخصائص العربية: ٣١ – ٣.

(٥) ينظر: أضواء على الدراسات اللغوية المعاصرة: ٧.

(٦) ينظر: مدخل إلى علم اللغة: ٢٥.

(٧) المستشرقون والمناهج اللغوية: ٢١.

(٨) ينظر: نفسه: ٢١.

(٩) ينظر: الألسنية (علم اللغة الحديث): ١٠٦.

(١٠) ينظر: علم اللغة علي عبد الواحد: ٥٦ –٥٧.

(١١) دراسات في مناهج البحث اللغوي الحديث (المنهج التاريخي): ٨٢٢.

(١٢) مناهج البحث اللغوي بين التراث والمعاصرة: ٧.

(١٣) علم اللغة: ٢٤٣.

(١٤) المدخل الى علم اللغة: ٢٩.

(١٥) نفسه: ١٨١.

(١٦) ينظر: علم اللغة (السعران) ٣٣٠، وعلم اللغة، علي عبد الواحد: ٥٣.

(١٧) علم اللغة (علي عبد الواحد): ٥٤.

(١٨) ينظر: المستشرقون والمناهج اللغوية الحديثة: ٤١.

(١٩) ينظر: علم اللغة (علي عبد الواحد): ٥٤.

(٢٠) ينظر: مدخل الى علم اللغة: ٨٥.

(٢١) مناهج البحث اللغوي بين التراث والمعاصرة: ١٤٩.

(٢٢) ينظر: علم اللغة علي عبد الواحد: ٥٥.

(٢٣) ينظر: مناهج البحث اللغوي بين التراث والمعاصرة: ١٥٠.

(٢٤) علم اللغة (علي عبد الواحد): ٥٥.

(٢٥) ينظر: كعلم اللغة: ١٢٧.

(٢٦) ينظر: مدخل الى علم اللغة: ٢٥٤.

(٢٧) مدخل الى علم اللغة محمود فهمي حجازي: ٢٥.

(٢٨) ينظر: نفسه: ٢٥.

(٢٩) ذهب بعضهم إلى إنها هبة من الله لموسى عليه السلام وعزاها المصريون إلى الإله توت، وقيل إنها وجدت لتحقيق أغراض سحرية فهي أحد طرق السحر، ينظر: مندريس ٤٠٣.

(٣٠) مدخل إلى علم اللغة: ١٤٩.

(٣١) ينظر: اللغة ٤٠٤.

(٣٢) ينظر: منهج البحث في الأدب واللغة: ١٣٢.

(٣٣) ينظر: اللغة: ٤٠٥.

(٣٤) اللغة: ٤٠٥.

(٣٥) ينظر: المدخل إلى علم اللغة: ١٩٦.

(٣٦) مدخل إلى علم اللغة: ١٥٠، وينظر مناهج البحث اللغوي بين التراث والمعاصرة: ١٥٤.

(٣٧) ينظر: علم اللغة، علي عبد الواحد: ٥٨.

(٣٨) مناهج البحث اللغوي: ١٥٥.

(٣٩) ينظر نفسه: ١٥٧.

(٤٠) ينظر علم اللغة (علي عبد الواحد): ٥٦.

(٤١) تاريخ علم اللغة: ١٦٢.

(٤٢) علم اللغة (السعران): ٢٤٧.

(٤٣) مدخل إلى علم اللغة: ٢٥.

(٤٤) ينظر: مدخل الى علم اللغة: ٢٥٥.

(٤٥) ينظر: تاريخ علم اللغة: ٨٦.

(٤٦) المدخل إلى علم اللغو: ١٩٨.

(٤٧) ينظر: أصوات اللغة: ١٠.

(٤٨) ينظر: النحو العربي والدرس الحديث: ٢٦، منهج البحث اللغوي: ٩٥.

(٤٩) الألسنية: ١٤٦

(٥٠) علم اللغة العام: ١٦٣.

(٥١) نفسه: ١٦٣.

(٥٢) ينظر: المدخل إلى علم اللغة: ١٩٧.

(٥٣) ينظر: النحو اللغوي العربي والدرس الحديث: ٢٩ – ٣٠ ومناهج البحث اللغوي بين التراث والمعاصرة: ٩٨.

(٥٤) ينظر: أسس علم اللغة: ١٣٩– ١٤١، ودراسات في مناهج البحث اللغوي: ٨٣.

(٥٥) أسس علم اللغة: ١٧٦.

(٥٦) المستشرقون والمناهج اللغوية الحديثة: ٢٤.

(٥٧) مناهج البحث اللغوي: ١٥٩.

(٥٨) ينظر: نفسه، ١٥٩.

(٥٩) ينظر: نفسه، ١٧٧.

(٦٠) ينظر: علم اللغة، ٢٤٤.

(٦١) ينظر: مناهج البحث اللغوي، ١٢١– ١٦٣.

(٦٢) دراسات في اللغة: ١٤١.

(٦٣) الأحزاب: ٣٣.

(٦٤) ينظر: فقه اللغة وخصائص العربية: ٢٢١.

(٦٥) مدخل إلى علم اللغة: ٢٥.

(٦٦) اللغة: ٧٥– ٨١.

(٦٧) الكتاب: ٢/ ٤٠٥.

(٦٨) سر صناعة الاعراب: ١/ ٥٢.

[٦٩] ينظر: حرف الضاد وكثرة مخارجه: ٦٢، والأصوات العربية لكانتيو: ٥٤

[٧٠] ينظر: علم اللغة السعران: ١٥٥.

[٧١] ينظر: التطور النحوي: ٨١

[٧٢] ينظر: الكتاب: ٢/ ٤٠٦

[٧٣] الكتاب: ٢/ ٤٠٦.

[٧٤] الأصوات اللغوية: ٤٩

[٧٥] ينظر: محاضرات الدكتور نعمة العزاوي على طلبة الماجستير.

[٧٦] اللغة: ٢١٠.

[٧٧] البحاثة اللغوية: ٤.

[٧٨] البحاثة اللغوية: ٨.